قصص إسلامية للأطفال

أم الشهداء

تأليف

محمد منير الخباز

مكتبة
التوبة

ⓒ مكتبة التوبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجنباز، محمد منير

أم الشهداء.- الرياض

٢٨ص، ١٧×٢٤سم.- (سلسلة قصص إسلامية للأطفال)

ردمك: ١ - ٥٢ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

١ - القصص الإسلامية ٢ - قصص الأطفال أ - العنوان

ب - السلسلة

ديوي ٨١٣،٠٨٨ ٢٠/٣٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٠/٣٨٢٣

ردمك: ١ - ٥٢ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

طبعة جديدة منقحة

الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير

هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلاَ تَعْرِفُهَا عَزِيْزي الطِفْل، إِنَّهَا الشَّاعِرَةُ الخَنْسَاءُ، تُمَاضِرُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيد، سَيِّدَةُ نِسَاءِ قَوْمِهَا بَنِي سُلَيْمٍ.

لَقَدْ عَاشَتْ فَتْرَةً مِنْ حَيَاتِهَا في الجَاهِلِيَّةِ، وَتَخَلَّقَتْ بِأَخْلاَقِ قَوْمِهَا، تُشَارِكُهُمْ عَادَاتِهِمْ بِكُلِّ مَا فِيْهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ الإِسْلاَمَ

وَلاَ سَمِعَتْ بِهِ، كُلُّ هَمِّهَا أَنْ تَقُوْلَ الشِّعْرَ وَأَنْ تَحْفَظَ قِصَصَ العَرَبِ وَرِوَايَاتِهِمْ، وأَنْ تُبَاهِيَ الشُّعَرَاءَ بِشِعْرِهَا، وَأَنْ تُشَارِكَ قَوْمَهَا في صِرَاعِهِمْ مَعَ أَعْدَائِهِمْ، فَتَحُثُّهُمْ عَلَى الحَرْبِ وَالقِتَالِ، لَقَدِ اشْتَعَلَتِ الحَرْبُ بَيْنَ قَوْمِهَا وَأَعْدَائِهِمْ، وَتَبَادَلُوا شَنَّ الغَارَاتِ، فَكَانَتْ تُزْكي بِشِعْرِهَا نَارَ الحَرْبِ وَتَدْفَعُ قَوْمَهَا لِلثَّأْرِ وَالقِتَالِ، وَلَمَّا قُتِلَ أَخُوْهَا صَخْرٌ في الحَرْبِ بَكَتْهُ كَثِيْراً، وَحَزِنَتْ عَلَيْهِ طَوِيْلاً، وَلَبِسَتِ السَّوَادَ وِثِيَابَ الصُّوْفِ الخَشِنَةِ حِدَاداً عَلَى مَوْتِهِ، وَكَانَتْ تَجْمَعُ النِّسَاءَ وَتَقْرَأَ

عَلَيْهِنَّ شِعْرَهَا في رِثَائِهِ، فَيَبْكِيْنَ وَتَبْكِي مَعَهُنَّ، وَيُمَزِّقْنَ ثِيَابَهُنَّ، وَيَنْتَزِعْنَ شُعُورَهُنَّ، دَليلاً على عُمْقِ الحُزْنِ والأَسَى، وَتَفْعَلُ هِيَ مِثْلَهُنَّ، وَكَانَتْ تَخْرُجُ إِلى البَرَارِي وَالجِبَالِ، فَتَذْكُرُهُ وَتَبْكِيْهِ وَتَتَغَنَّى بِمَجْدِهِ وَعِزِّهِ، وَتَذْكُرُ شَبَابَهُ وَقُوَّتَهُ، وَتَصِفُهُ بِمُخْتَلَفِ أَوْصَافِ البُطُوْلَةِ وَالفِدَاءِ، حَتَّى صَوَّرَتْهُ بَطَلاً قَوِيًّا شَدِيْداً يَقْهَرُ كُلَّ الأَبْطَالِ، وَيُزَلْزِلُ الجِبَالَ وَيَفْتِكُ بِالوُحُوْشِ، وَيَصْنَعُ أَقْوَى المُعْجِزَاتِ، كَانَتْ هَذِهِ هِيَ حَالُ الشَّاعِرَةِ الخَنْسَاءِ أَيَّامَ الجَاهِلِيَّةِ، انْطَبَعَتْ أَخْلاَقُهَا بِتِلْكَ

الفَتْرَةِ فَتَأَثَّرَتْ بِهَا، وَسَارَتْ عَلَى خَطِّهَا، عَرَفَتِ الثَّأْرَ وَالحُرُوْبَ وَالقِتَالَ، وَعَرَفَتِ الخُرَافَاتِ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ تَقْدِيسِ الأَوْثَانِ وَالأَشْخَاصِ، وَعَرَفَتْ أَيْضاً بَعْضَ الصِفَاتِ الحَمِيْدَةِ التي كَانَتْ لاَ تَخْلُو مِنْهَا تِلْكَ الأَيَّامُ، مِثْلَ: إِكْرَامِ الضَّيْفِ، وَإِغَاثَةِ المَلْهُوفِ، وَالوَفَاءِ وَعَدَمِ الغَدْرِ.

الإِسْلاَمُ يُغَيِّرُ أَخْلاَقَ الخَنْسَاءِ:

وَانْتَشَرَ الإِسْلاَمُ بَيْنَ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ، وَدَخَلَ النَّاسُ في دِيْنِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، فَغَيَّرَ الإِسْلاَمُ مِنْ أَخْلاَقِ النَّاسِ، وَجَعَلَهُم يَنْبُذُونَ الأَخْلاَقَ الجَاهِلِيَّةَ

وَيَتَحَلَّوْنَ بِالأَخْلاَقِ الحَسَنَةِ الفَاضِلَةِ، فَارْتَقَتْ بِهِ النُّفُوسُ، وَرَقَّتِ الطِّبَاعُ وَالقُلُوْبُ، وَأَضحَى النَّاسُ الذِيْنَ دَخَلُوا في الإِسْلاَمِ لاَ يُفَكِّرُونَ إِلا بِاتِّبَاعِ أَحْكَامِهِ وَتَعَالِيْمِهِ السَّمْحَةِ، الّتي تَدْعُو إِلى الأُخُوَّةِ وَإِلى العَمَلِ لِصَالِحِ الإِسْلاَمِ، وَلِمَنْفَعَةِ المُسْلِمِينَ جَمِيْعاً، فَالْفَرْدُ المُسْلِمُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ في نَفْسِهِ فَقَطْ، وَإِنَّما يُفَكِّرُ لأَجْلِ المُسْلِمِيْنَ وَعُلُوِّهِمْ وَرِفْعَتِهِمْ، وَهَكَذَا تَغَيَّرَت حَالُ الخَنْسَاءِ بَعْدَ أَنْ دَخَلَتْ في الإِسْلاَمِ، فَأَصْبَحَتْ تَعْمَلُ لأَجْلِ المُسْلِمِيْنَ، وَتَغَيَّرَتْ نَظْرَتُهَا لِلْكَوْنِ وَالحَيَاةِ، فَبَعْدَ

أَنْ كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّ المَوْتَ هُوَ نِهَايَةُ الإِنْسَانِ ـ

وَهَذَا مُعْتَقَدُ بَعْضِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ ـ أَصْبَحَتْ

تَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيَبْعَثُ النَّاسَ

جَمِيْعاً فِي يَوْمِ الحِسَابِ، وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى

أَعْمَالِهِمْ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً فَدَارُ أَهْلِ الخَيْرِ دَارُهُمْ،

وَمُقَامُهُمْ فِي جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ

خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً، وَإِنْ كَانَ شَرّاً، فَدَارُ أَهْلِ

الشَّرِ دَارُهُمْ، وَمُقَامُهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيْهَا

أَبَداً، لِذَلِكَ لَمْ تَعُدْ تَبْكِي الأَمْوَاتَ كَمَا فَعَلَتْ

عَلَى أَخِيْهَا، لأَنَّ الإِسْلاَمَ مَنَعَ النُّوَاحَ عَلَى

الأَمْوَاتِ، وَمَنَعَ تَمْزِيْقَ الثِّيَابِ وَتَخْمِيْشَ الوَجْهِ حُزْناً عَلَى المَيِّتِ، بَلْ أَمَر بِالصَّبْرِ والدُّعَاءِ بِالخَيْرِ لأُولَئِكَ الأَمْوَاتِ.

لَقَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ الخَنْسَاءِ لِلإِسْلاَمِ فَآمَنَتْ عَنْ صِدْقٍ وَيَقِيْنٍ بِاللَّهِ رَبّاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيْناً، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيّاً، مُبَلِّغاً رِسَالَةَ اللَّهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ، لِيَهْدِيَهُمْ إِلى طَرِيْقِ الخَيْرِ حَتّى يَسْلُكُوْهُ، وَيُحَذِّرَهُمْ مِنْ طَرِيْقِ الشَّرِّ لكي يَجْتَنِبُوْهُ، فَهَذِهِ رِسَالَةُ الإِسْلاَمِ؛ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

الخَنْسَاءُ تَعْمَلُ للإِسْلاَمِ:

ولِذَكَاءِ الخَنْساءِ النَّادِرِ وَفَهْمِهَا الصَّحِيْحِ لِلإِسْلاَمِ وَتَعَالِيْمِهِ، فَقَدْ نَذَرَتْ نَفْسَهَا لِلْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ دِيْنِهَا الجَدِيْدِ، الّذي وَجَدَتْ فِيهِ السَّعَادَةَ التي تَمْلأُ قَلْبَهَا، والرِّضَا الّذي يُثْلِجُ صَدْرَهَا، وَهُدُوْءَ النَّفْسِ وَالسَّكِيْنَةَ الّتي تُرِيْحُ وُجْدَانَهَا، فَلَمْ تَعُدْ تَهُزُّهَا المَصَائِبُ والخُطُوْبُ، لأَنَّهَا أَصْبَحَتْ تَعْتَقِدُ - بَعْدَ إِسْلاَمِهَا - بِأَنَّ كُلَّ شَيءٍ يَحْدُثُ في هَذَا الكَوْنِ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ، وَكُلَّ أَمْرٍ يَحْدُثُ في هَذَا الكَوْنِ هُوَ بِمَشِيْئَةِ اللَّهِ وَأَمْرِه، فَلاَ يُصَابُ إِنْسَانٌ بِنَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ إلاّ بِتَقْدِيْرِ اللَّهِ، لَقَدْ قَرَأَتِ

القُرآنَ الكَرِيْمَ، فَدَخَلَتْ مَعَانِيْهِ في أَعْمَاقِ نَفْسِهَا

وَعَرَفَتْ، بِمَا أُوْتِيَتْ مِنْ فَصَاحَةٍ وَذَكَاءٍ، أَنَّهُ

كَلاَمُ اللَّهِ خَالِقِ هَذَا الكَوْنِ، وَأَنَّ البَشَرَ مَهْمَا

اجْتَهَدُوا لا يَسْتَطِيْعُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أَبَداً،

وَسَمِعَتْ حَدِيْثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَأَتْ فِيْهِ

الصِّدْقَ الوَاضِحَ الجَلِيَّ، وَالدَّعْوَةَ الخَالِصَةَ إلى

عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، لَقَدْ وَقَرَ في قَلْبِهَا مَعْنَى

الإِيْمَانِ، وَمَعْنَى التَّسْلِيْمِ لأَمْرِ اللَّهِ، مِنْ حَدِيْثِ

رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ لابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -

وَهُوَ يَوْمَذَاكَ طِفْلٌ صَغِيْرٌ لَمْ يَتَجَاوَزْ مِنَ العُمُرِ

عَشْرَ سِنِيْنَ ـ عِنْدَمَا قَالَ لَهُ الرَّسُوْلُ ﷺ: «يَا بُنَيَّ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلّا بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» لِذَلِكَ اطْمَأَنَّتْ لِكُلِّ حَدَثٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلَمْ تُبَالِ بَعْدَهَا بِالمَوْتِ، وَتَذَكَّرَتْ مَا كَانَ مِنْهَا

يَوْمَ مَاتَ أَخُوْهَا صَخْرٌ عِنْدَمَا مَزَّقَتْ ثِيابَهَا،

وَعَاشَتْ لأَجْلِ ذَلِكَ حَزِيْنَةً عِدَّةَ سِنِيْن، فَعَاهَدَتْ

رَبَّهَا بَعْدَ أَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهَا لِلإِسْلَامِ، أَنْ

تُرْسِلَ أَبْنَاءَها الأَرْبَعَةَ إِلى سَاحَةِ الجِهَادِ، لِيُقَاتِلوا

في سَبِيْلِ اللَّهِ، وَيُدَافِعُوا عَنْ الإِسْلَامِ وَعَنْ دِيَارِ

الإِسْلامِ، وَلِكَيْ يَنْشُروا دِيْنَ الإِسْلَامِ، وَيَقضُوا

عَلَى الشِّرْكِ والضَّلَالِ، فَإِمَّا أَنْ يَنْتَصِرُوا عَلَى

أَعْدَائِهِمْ، وَإِمَّا أَنْ يُستَشْهِدُوا في سَبِيْلِ اللَّهِ،

وَحَثَّتْ أَبْنَاءَهَا عَلَى اللَّحَاقِ بِجَيْشِ المُسْلِمِيْنَ

بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ أَبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِيَ

تَوَجَّهَ إلى العِرَاقِ لِقِتَالِ الفُرْسِ، وَالقَضَاءِ عَلَى المَجُوسِيَّةِ الّتي عَبَدَتِ النَّارَ، وَاقْتَرَفَتْ كُلَّ المُحَرَّمَاتِ، فَسَارَعَ أَبْنَاءُ الخَنْسَاءِ وَانْضَمُّوا إلى هَذَا الجَيْشِ الإِسْلَامِيّ الزّاحِفِ، وَكَانَتْ مَعَهُمُ الخَنْسَاءُ تُرَافِقُهُمْ، وَتَحُثُّهُم عَلَى الصَّبْرِ في الجِهَادِ، وَعَلى الإِقْدَامِ وَعَدَمِ الفِرَارِ، وَتُذَكِّرُهُمْ بِأَجْرِ الصَّابِرِيْنَ عِنْدَ اللَّهِ، وَتَقْرَأُ عَلَيْهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ وَتُذَكِّرُهُمْ بِأَجْرِ الشُّهَدَاءِ في الآخِرَة وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ

لَهُم مِن الثَّوَابِ الكَرِيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ وَتَقْرَأُ عَلَيْهِمْ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ الشَّهِيْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَنْزِفُ، اللَّونُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيْحُ رِيحُ مِسْكٍ» وَقَالَتْ لَهُم أَيْضاً: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيْدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ...».

وَهَكَذَا رَغَّبَتْهُمْ في الإِقْدَامِ ونَيْلِ الشَّهَادَةِ، كَما حَذَّرَتْهُمْ مِنَ الفِرَارِ وَعَاقِبَتِهِ المَهِيْنَةِ، وَقَرَأَتْ عَلَيْهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ

﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾.

وَشَحَنَتِ الخَنْسَاءُ أَبْنَاءَهَا شِحْنَاتٍ إِيْمَانِيَّةً قَوِيَّةً، جَعَلَتْهُمْ يَتَشَوَّقُوْنَ لِلْمَعْرَكَةِ اشْتِيَاقَ العِطَاشِ لِلْمَاءِ البَارِدِ في صَيْفٍ حَار، لَقَدْ أَرْضَعَتْهُمْ في طُفُوْلَتِهِمُ الحَلِيْبَ الحَانِيَ المِدْرَارَ، وَهَا هِي اليَوْمَ تُرْضِعُهُمْ مِنَ العَقِيْدَةِ الإِسْلامِيَّةِ الصَّافِيَةِ، فإذا كَانَ الحَلِيْبُ غِذَاءَ البَدَنِ، فَإِنَّ العَقِيْدَةَ الإِسْلامِيَّةَ هِيَ غِذَاءُ الرّوْحِ وَالفِكْر، وَكَانَ أَوْلادُ الخَنْسَاءِ مُطِيْعِيْنَ

لِوَالِدَتِهِمْ في طُفُولَتِهِمْ وفي شَبَابِهِمْ، فَلَمْ يُخَيِّبُوا أَمَلَهَا، وَلَبِسُوا لِبَاسَ الحَرْبِ وَتَوَجَّهُوا لِلْجِهَادِ.

مَعرَكَةُ القَادِسِيَّةِ:

وَوَصَلَ القَائِدُ سَعْدُ بْنُ أَبي وَقّاصٍ بِجَيْشِهِ إلى القَادِسِيَّةِ، وَهِي قَرْيَةٌ صَغِيْرَةٌ في العِرَاقِ، فَرَتَّبَ جُنْدَهُ، وَاسْتَعَدَّ لِمُلاَقَاةِ جَيْشِ الفُرْسِ، وَدَارَتْ فِيْهَا مَعْرَكَةٌ كَبِيْرَةٌ بَيْنَ جُنُوْدِ المُسْلِمِيْنَ وَجُنُوْدِ الفُرْسِ، وَاسْتَمَرّتِ المَعْرَكَةُ عِدَّةَ أَيَّامٍ، وَاشْتَدَّ القِتَالُ، وَكَثُرَ عَدَدُ القَتْلَى وَالجَرْحَى مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَاسْتَخْدَمَ الفُرْسُ في قِتَالِهِمْ عَدَداً كَبِيْراً

مِنَ الفِيَلَةِ الّتي كَانَتْ تَخْتَرِقُ الصُّفُوْفَ، وَتَدُوسُ المُسْلِمِيْنَ بِأَخْفَافِهَا الثّقِيْلَةِ، وَعَلَى ظَهْرِهَا تَحْمِلُ المُقَاتِلِيْنَ مِنَ الفُرْسِ الّذيْنَ يَرْمُوْنَ المُسْلِمِيْنَ بِالسِّهَامِ والرِّمَاحِ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةً شَاقَّةً عَلَى المُسْلِمِيْنَ، إلاَّ أَنَّهُمْ لَمْ يَفِرُّوا، بَلْ صَمَدُوا يَصُدُّونَ الفِيَلَةَ وَجَيْشَ الفُرْسِ بِأَرْوَاحِهِمْ وَأَجْسَامِهِمْ، وَفَكَّرَ المُسْلِمُوْنَ في حِيَلٍ كَثِيْرَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الفِيَلَةِ الّتي لاَ تُؤَثِّر فِيهَا السِّهَامُ لِسَمَاكَةِ جُلُودِهَا، كَما أَنَّ السُّيُوْفَ لاَ تَصِلُ إِلَيْهَا، فَالّذي يَقْتَرِبُ مِنْهَا وَبِيَدِهِ السَّيْفُ تَضْرِبُهُ

بِخُرْطُومِهَا الطَّوِيلِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَدُوسُهُ بِأَقْدَامِهَا حَتّى يَمُوتَ، وَهَكَذَا فَقَدْ سَقَطَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الشُّهَدَاءِ الَّذِيْنَ حَاوَلُوا قَتْلَ الفِيلَةِ فَلَمْ يُفْلِحُوا، وَاحْتَالَ المُسْلِمُوْنَ فِي اليَوم التَّالي فَأَلْبَسُوا الجِمَالَ الأَثْوَابَ، وَوَضَعُوا عَلَى رُؤُوسِهَا البَرَاقِعَ وَالأَقْنِعَةَ، فَبَدَتْ مُخِيْفَةً بِمَظْهَرِهَا، مُرْعِبَةً بِجَزْيِهَا وَقَفْزِهَا، فَخَافَتْهَا الفِيَلَةُ وَتَوَقَّفَتْ عَنِ الهُجُوْمِ، وَهُنَا اقْتَرَبَ حَامِلُو الرِّمَاحِ الطَّوِيْلَةِ مِنْهَا وَسَدَّدُوا رِمَاحَهُمْ نَحْوَ عُيُونِهَا، فَفُقِئَتْ تِلْكَ العُيُوْنُ، وَهَاجَتْ الفِيَلَةُ وَمَاجَتْ، ثُمَّ ارْتَدَّتْ إِلى

الوَرَاءِ، وَهِيَ لاَ تَدْرِي فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ تَسِيْرُ، فَانْطَلَقَتْ تَدُوسُ الجَيْشَ الفَارِسِيَّ الّذي كَانَ يَسِيْرُ خَلْفَهَا، فَقَتَلَتْ مِنْهُ خَلْقاً كَثِيْراً، ثُمَّ انْطَلَقَتِ الفِيَلَةُ فِي رَكْضِهَا حَتّى وَصَلَتْ إِلى نَهْرِ الفُرَاتِ، فَسَقَطَتْ فِيْهِ، وَغَرِقَتْ بِمَنْ كَانَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنَ الجُنُودِ الفُرْسِ، ورَأَى المُسْلِمُوْنَ الكَارِثَةَ الّتي حَلَّتْ بِأَعْدَائِهِمْ، فَاسْتَغَلُّوا هَذَا الخَلَلَ الّذي حَصَل فِي صُفُوفِ أَعْدَائِهِمْ، وَأَطْبَقُوا عَلَيْهِمْ من كلِّ مَكَانٍ، وَدَارَتْ رَحَى مَعْرَكَةٍ عَنِيْفَةٍ تَوَاصَلَ فِيْهَا اللّيْلُ بِالنَّهَارِ، وَالقِتَالُ

مُسْتَمِرٌ، فَلا يُسْمَعُ إِلاّ صَهِيْلُ الخَيْلِ، وَأَصْوَاتُ السِّلاَحِ، وَتَكْبِيْرُ المُسْلِمِيْنَ لِلصُّمُودِ، ثُمَّ أَسْفَرَ النَّهَارُ، وَهَرَبَ الفُرْس في كُلِّ اتِّجَاهٍ يَطْلُبُوْنَ النَّجَاةَ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَقَدْ قُتِلَ قَادَتُهُمْ، وَقُتِلَ الآلاَفُ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّفَ القِتَالُ، وَفَرِحَ المُسْلِمُوْنَ بِنَصْرِ اللَّهِ، ثُمَّ أَخَذُوا يُفَتِّشُونَ عَنْ قَتْلَى المُسْلِمِيْنَ لِدَفْنِهِمْ، وَعَنِ الجَرْحَى لِتَضْمِيدِ جِرَاحِهِمْ، وَلَمَّا جَمَعُوا الشُّهَدَاءَ مِنْ سَاحَةِ المَعْرَكَةِ، إِذَا بِهِمْ يَجِدُونَ أَبْنَاءَ الخَنْسَاءِ الأَرْبَعَةِ بَيْنَ الشُّهَدَاءِ، فَهَالَهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا أُمَّهُمْ بِهَذَا

الخَبَر المُؤْلِم. وَرَقَّ القَائِدُ لِحَالِ الخَنْسَاءِ وَخَشِيَ أَنْ يُصِيْبَهَا مِنَ الحُزْنِ وَالبُكَاءِ مَا أَصَابَهَا يَوْمَ فَقَدَتْ أَخَاهَا، لِذَلِكَ تَرَدَّدَ في إِبْلاَغِهَا هَذَا النَّبَأَ، ثُمَّ أَرْسَلَ وَفْداً إِلى الخَنْسَاءِ لِيُبَلِّغُوْهَا الخَبَرَ، وَيُعزُّوْهَا بِوَفَاةِ أَبْنَائِهَا، وَانْطَلَقَ الوَفْدُ نَحْوَ الخَنْسَاءِ، فَلَمَّا شَاهَدَتْهُمْ أَسْرَعَتْ نَحْوَهُم لأَنَّهَا كَانَتْ كُلَّ يَوْمٍ تَخْرُجُ لِتَسْمَعَ أَخْبَارَ جَيْشِ المُسْلِمِيْنَ، فَأَوْقَفَتْهُم، وَسَأَلَتْهُم عَنْ أَخْبَارِ المُسْلِمِيْنَ، قَالُوا: أَبْنَاؤُكِ يَا خَنْسَاءُ، فَقَاطَعَتْهُم قَبْلَ أَنْ يُكْمِلُوا حَدِيْثَهُم، قَائِلَةً لَهُمْ: لَمْ أَسْأَلْكُم

عَنْ أَبْنَائِي بَعْدُ، وَإِنَّمَا أَسْأَلُكُمْ عَنْ أَخْبَارِ المَعَارِكَ.

قَالُوا لَقَدِ انْتَصَرْنَا عَلَى الأَعْدَاءِ نَصْراً مُؤَزَّراً، وَهَزَمْنَاهُمْ شَرّ هَزِيمَةٍ، قَالَتِ: الحَمْدُ لِلّهِ، هَذَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَتْ: وَهَلْ قَاتَلَ أَبْنَائِي قِتَالاً مُشَرِّفاً أَمْ أَنَّهُمْ جَبُنُوا وَخَافُوا؟

قَالُوا: لاَ أَيَّتُهَا الخَنْسَاءُ، إِنَّ أَبْنَاءَكِ هُمْ مِنْ خِيْرَةِ المُقَاتِلِيْن، لَقَدْ صَمَدُوا بِقُوَّةٍ أَمَامَ الأَعْدَاءِ وَلَقَدْ كَانَ صِيَاحُهُمْ يَعْلُو بِالتَّكْبِيْرِ وَالتَّهْلِيْلِ، وَحَثِّ الجُنُودِ عَلَى الإِقْدَامِ وَعَدَمِ الفِرَارِ، وَإِنَّا لَنَفْخَرُ

بِهِمْ وَبِأُمِّهِمْ الّتي أَنْجَبَتْهُمْ وَرَبّتْهُمْ عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَالتَّضْحِيَةِ في سَبِيْلِهِ، لَقَد نَالُوا جَميعاً شَرَفَ الشَّهَادَةِ في سبِيلِ اللَّهِ..

عِنْدَهَا قَالتِ الخَنْسَاءُ قَوْلَتَهَا المَشْهُورَةَ: «الحَمْدُ لِلّهِ الّذي شَرَّفَنِي بِجِهَادِهِمْ وَاسْتِشْهَادِهِم، وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ تَعَالى أَنْ يَجْمَعَنِي بِهِمْ في فَسِيْح جَنَّاتِهِ، لِنَنْعَمَ بِرِضْوَانِهِ وَرَحَمَاتِهِ»، وَلَمْ تَبْكِ، وَلَمْ تَلْبَسِ السّوَادَ، وَلَمْ تَشُدَّ الشَّعْرَ أَوْ تَخْمِشِ الوَجْهَ، لَقَدْ قَالَتْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ، وَهِي رَاضِيَةٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ، فَخُورَةٌ بِمَا قَدَّمَ أَوْلاَدُهَا في سَبِيْلِ اللَّهِ.

هَذِهِ هِيَ الخَنْسَاءُ، مَثَلٌ حَيٌّ لِكُلِّ أُمٍّ مُسْلِمَةٍ، وَقُدْوَةٌ صَالِحَةٌ لِنِسَاءِ أُمَّتِنَا، رَبَّتْ أَبْنَاءَهَا تَرْبِيَةً إِسْلَامِيَّةً صَادِقَةً، ثُمَّ وَهَبَتْهُمْ لِلأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ لِيُقَاتِلُوا وَيَذُوْدُوا عَنْهَا، فَاخْتَارَهُمُ اللَّهُ إِلَى جِوَارِهِ شُهَدَاءَ يَنْعُمُوْنَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَيَرْتَعُوْنَ هَانِئِيْنَ فِي جِنَانِهِ، إِنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ الحَقُّ لِلْمُجَاهِدِيْنَ فِي سَبِيْلِهِ، وَلَوْ لَمْ يُدَافِعْ مِثْلُ هَؤُلاءِ الشُّهَدَاءِ عَنْ دِيَارِ المُسْلِمِينَ، لَمَا كَانَ لِلْمُسْلِمِيْنَ عَزٌّ وَمَجدٌ، وَلَضَاعَتْ دِيَارُهُمْ، وَسَيْطَرَ عَلَيْهَا أَعْدَاؤُهُمْ.

رَحِمَ اللَّهُ الخَنْسَاءَ وَرَحِمَ اللَّهُ أَبْنَاءَهَا الشُّهَدَاءَ، لَقَدْ كَانُوا خَيْرَ مَثَلٍ لِلتَّضْحِيَةِ وَالفِدَاءِ، وَكَانَتْ أُمُّهُمْ خَيْرَ مُرَبِّيَةٍ لِهَؤُلاءِ الأَبْطَالِ، لِذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ مِنَ المُسْلِمِينَ لَقَبَ (أُمُّ الشُّهَدَاءِ).